

٤ - الشعر المرسل

درامات الأستاذ أبي حيدر ومحمدة

الأستاذ دريني خشبة



وقبل أن أعرض على القراء الأفاضل ، وأصدقائي الشعراء منهم خاصة ، نماذج مما نظم وودنا الأوائل في الشعر المرسل ، وفي مقدمتهم الشاعر الأول الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم الأساتذة : علي أحمد باكثير ، واحمد فريد أبو شادي ، و خليل شيبوب ، ومن عسينا أن نعرض لهم من شعرائنا فيما بعد ... قبل أن أعرض هذه النماذج أرجو أن أذكر القراء والشعراء على السواء أن الشعر المرسل لا يستعمل إلا في الروايات التمثيلية والملاحم والقصص الطويلة بأنواعها ، وأرجو أن أذكرهم أنهم حينما يتفضلون بقرائته فواجب ألا يقفوا عند آخر البيت أو السطر يتلمسون الفقيد العزيز الذي نُحِثُّ به في هذا الشعر ... هذا الفقيد الذي ما اخترع الشعر المرسل إلا للتخلص من شره ... هذا الفقيد هو القافية

يجب ألا يقف القراء عند آخر كل سطر يتلمسون هذا الفقيد الذي يحسن ألا يمز عليهم مغيبه ، بل يجب أن يقرأوا هذا الشعر المرسل على أنه كلام موزون لا ينتهي عند آخر البيت أو السطر ، ولكنه ينتهي عند ما ينتهي الغرض من الكلام أو الغرض من الحوار ... فالكلام جارٍ Running ما جرى الحوار ولا يقف إلا عند نهاية المنظر ، وليس يقف أجزاء أجزاء عند القافية كما هي الحال في الشعر الغنائي

وقد اتخذ الأستاذ أبو حديد - الشطر - وحدة له في شعره المرسل ، وكذلك الأستاذ باكثير ؛ أما الأستاذ أبو شادي فقد جعل البيت كله وحدة في أكثر ما نظم ، ولذلك يضطر قارئ شعره إلى الوقوف آخر كل بيت ، وعند ذلك يشمر القارئ أنه يبحث عن الفقيد العزيز أو غير العزيز ، وهو القافية ، وعند ذلك أيضاً يشمر القارئ بخيبة أمل شديدة لاختلال الموسيقى واضطرابها ... أما الأستاذ شيبوب فقد سلك طريق الشعر

الحر ، وذلك بعدم الارتباط بعدد التفعيلات في كل سطر ، لكنه بالغ في تعدد البحور مبالغة شديدة ، وفي ذلك من التنافر ما فيه ، مما سوف نعرض له في فرصة أخرى إن شاء الله

مفضل سبرنا عثمان

ذكرنا في الكلمة السابقة أن الأستاذ أبو حديد نظم هذه الدراما سنة ١٩١٨ وأنها لذلك أول أثر عربي كبير كامل في الأدب العربي - أو الأدب المصري - بالشعر المرسل ، وأنها لهذا السبب جديرة بالدراسة وجديرة بحسن الالتفات . وموضوع الدراما يتناول تلك المأساة الباكية التي يدعى لها فؤاد كل مسلم ... المأساة التي غيرت وجه الإسلام وذهبت بحرية الشورى التي بشر بها محمد ... المأساة التي قسمت المعسكر الإسلامي وشقت وحدة المسلمين ، وجعلت من أعظم صحابة أعظم نبي فرقاً ممزقة ، ولبستهم شيعاً وأحزاباً ، وأذاقت بعضهم بأس بعض ... فأغمد المسلم سيفه في صدر أخيه المسلم ، وانتهى الأمر بأن أصبحت إمارة المؤمنين ملكاً عضوضاً وعهداً مفروضاً لا رأى فيه لأحد إلا ما تنتزعه القوة من بيعة ترفضها السيوف المصلتة ، ويرفضها الدين المحتقن ، وتأبأها الضمائر المكبوتة ، ولا تباركها السماء

ويبدأ الفصل الأول من المأساة بحوار بين جماعة من المسلمين الحائقين على سياسة عثمان - رضى الله عنه وغفر له - يشكون مما وصلت إليه الحال من استعمال أمير المؤمنين أهله وأقاربه على الولايات ، وعزله عمال عمر وأبي بكر ، ثم نزوله عن خمس مقام الحرب لبعض الأفراد من بنى أمية ، نزولاً قال عنه عثمان إنه بيع وليس نزولاً ... ثم يقبل مروان بن الحكم - هذا اللامية السلط على عثمان - مع الشاعر عدى الأموى ، فيدور بينهما حوار ينريه فيه مروان بإثارة العصبية القبلية الجاهلية التي يحقها الإسلام وعنى على آثارها ، ويعنيه مروان الأماني ، فيمده عدى خيراً وينطلق ، ويقول مروان :

أصبح الناس بدأ واحدة
كلهم يرى إلى قلب أمية
إن للحاسد قلباً قلقاً
لا يرى الراحة ما دام يرى

أترأ للخير في كف سواء
ما يودون ؟ أكننا هملاً
ثم أصبحنا امرأة في قريش ؟
فلئن بات لنا الأمر فقد
كان فينا مثله في الجاهلية
إنما يسمون فينا عبثاً
وسيقى مجدنا ما دام سيف

ثم يقدم خادم فيعطيه مروان بكرة من المال لينطلق بها
إلى الشاعر عدى كي يمدح بني أمية في (نادى أسد) ، ثم يقدم
عثمان في بعض أصحابه ومنهم على والزبير فيدور حوار تعرف منه
أن علياً خبير بما كان يدبره مروان بن الحكم من حصر
السلطة في أيدي الأمويين مستعيناً على ذلك « بسلامة نية ! »
عثمان ، ويرجى على النصيح لعثمان ، وينهى إليه خبر الشكاوى
التي جارت بها بعض الوفود القادمة من أطراف الإمبراطورية
الإسلامية الناشئة فيعد عثمان بتدارك الحال ، وينطلق على
والصحابة ويخلو مروان إلى نفسه فيبدى حنقه على إصغاء عثمان
لهي ... ثم يأتي البشير بالفتح وقرب وصول خمس الفاتم ،
ثم يلي هذا حوار بين نفر من الناقين على مروان وعلى عثمان
وعلى الأمويين أجمعين ، وفي الحوار غمز شديد لاستسلام
عثمان لمروان

وفي الفصل الثاني يحاول مروان إيفار صدر عثمان على على
والزبير وعبد الرحمن بن عوف لما رأى من إقبال الشاكرين من عمال
عثمان الأمويين عليهم وتدخل على والزبير وابن عوف عند عثمان
فيما زعم مروان أنه لاشأن لهم فيه ، وتؤثر وقعة مروان في نفس
عثمان ، فهو يقول بعد ذهاب مروان :

إن في القول لحقاً ظاهراً
كان من قبلي على الناس عُمَر
فتولام بمنف ، ورضوا
مثلما يسلس للحادى البعير
ولقد كنا نرى الراى فلا
نحمل القول على غير الشورة
وأرى قوى مضوا في غير هذا
فيسير الناس بالشكوى إليهم
فيجيثون بشكوى ويلوم

ولعمري إن من لان تدنى
ثم تصل جماعة من مصر تشكو عبد الله بن أبي السرح
ومعهم على بن أبي طالب الذى يظهر تبرمه لما ساد الدواحي من
ظلم عمال عثمان من بنى قرابته ، ويشور عثمان على على الذى يشتد
في تقده له :

كل يوم وافد من ناحيته
فبمصر أفسد الظلم البلاد
وعلى الشام أمير تكليفه
ويضج الناس من حكم العراق
وهنا دب الهوى وسط المدينة

فيقول عثمان :

ما الذى أسمع ؟ هل كنت ترى
لك هذا الحق أيام عمر ؟

فيقول على :

أى حق ؟ أظن النصيح حقاً ؟
ما الذى أجنبه إلا نصبا
إنما أقصد خيراً ، فإذا
كنت تأباه فلن أذكر شيئاً

فيضف عثمان ويقلب عليه عامل الخير والوفاء والإيمان
فيقول :

ليس قصدى كل باهم بنفسك الخ
فيقول على قوله الحق الذى لا يبالي :

أنت قد أصبحت في بيت أمية
مثلما كان ملوك الجاهلية
أفلا تبصر ما كان عمر ؟
إنه ما كان يرضى درهما
يتولاه نسيب فوق حقه
ولقد أنسجت آمالاً كباراً
لبنى جددك رغم المسلمين
أترى هذا صلاحاً للخلافة ؟

فيقول عثمان :

ذاك رأي ، ولكل ما يرى

فيقول على غاضباً :

إننى لولا حفاظى لقطعك

غير أن الناس ما زالوا أناسا
إنه لو ضاع عثمان فلا
يرجع الأمر لنا من بعده
وجب الآن علينا أن يرى
كيف نبقى الأمر في قبضتنا

وبهم بالخروج فيسمع لفظاً وضوضاء ، وإذا عثمان يرتد
ويذكر لروان أن التالبيين أخذوا عليه الطرقات هاتفين
متصايحين . ثم يدخل على فجأة فيفرح به عثمان وبوسطه في
إرضاء الأحزاب على أن يصلح من الأمر كل ما فسد ويتدارك
كل ما يشكون منه

وفي الفصل الأخير تم المسألة . فذان هما الحسن والحسين
ابنا علي بذودان عن دار عثمان بسيفهما ، وذلك وقد يجادل عثمان
في أمر خطاب زائف ضبطه الثوار مع رسول الخليفة بأمر والي
مصر بقتل رؤوس التالبيين وعلى الخطاب خاتم عثمان ... لكن
عثمان ينكر الخطاب ويخبرهم أنه إنما أمر بمكس هذا ، فإذا
أقنعه رجال الوفد بأن هذا المنكر من صنع مروان وأنه لا بد من
تسليمه إليهم رفض أمير المؤمنين وفقاً بمروان الذي لم يكن
يستأهل ذرة من هذا الرفق . ثم هذا مروان يشير على الخليفة
باستعمال الأناة والمكر حتى يقدم جيش الأمويين من الشام
فيقضى به على جميع التالبيين فيرفض عثمان أن يقتل المسلمون
في عهده . ثم هذا نبل يسقط قريباً من عثمان فلا يتخلع قلبه .
ثم هذا محمد بن أبي بكر صديق الرسول يقبل وقد قبض على
سيفه يريد قتل عثمان ، فإذا أخذ بلحية الأمير الشيخ نافقاً
مستهزئاً ذكره عثمان بمقامه من أبيه أبي بكر فيرتعد فؤاد محمد ،
ثم يولي هارباً . ثم يدخل متآمران فيهم بقتل عثمان وتدخل
نائلة (زوج عثمان) فتحاول الدفاع عن أمير المؤمنين فيأمر
أن تكف ، ثم يرفع كتاب الله ... القرآن الكريم .
وجه التأثير ويقول له :

إن عندي شاهداً لا يكذب

أرى هذا الكتاب ١٩

فترتد فرائص الرجل ويولى الأدبار ... ثم يدخل متآمر ثالث
قائلاً :

لن أضيع الوقت في قول طويل

خوف أن تسحر قلبي بحديثك

ستراني بإعداً عن كل أمرك
ثم يخرج نائراً فيقول عثمان حزينا :

سأه ما تلت - والله لقد

هاجني ما قال مروان بشأنه

فببح الله حياة الطامعين الخ ...

وفي الفصل الثالث تجتمع فرق من الساخطين من كل
صقع فيعزمون أمرهم على الشكوى لعبد الرحمن بن عوف ، فإذا
خرج أكثرهم دخل عثمان ومروان ، ويسأل عثمان عن على
ثم يخبره أحد الحاضرين عما تم بنادى أسد من تفاخر كتفاخر
الجاهلية وما انتهى إليه هذا التفاخر من إحياء المصيبة الجاهلية
التي أراد مروان بإحيائها التفاخر الكاذب بأجداد الأمويين
قبل الإسلام وسر تأخرهم في اعتناق الدين الجديد . وينصرف
عثمان لزيارة على ... ويقبل عبد الرحمن بن عوف في جماعة من
التدسرين الذين يذكرون له أنه كان السبب في اختيار عثمان
للتخلفاء برغم الإجماع على اختيار على ، فيهدتهم حتى يقبل عثمان
ومعه مروان أيضاً فيلاحيه ابن عوف ، فإذا سأله عثمان أجاب أنه
لا يذكر شيئاً حتى تنصرف الجماعة . فإذا انصرف بقي مروان
كالذي لصق بالأرض فيأمره عثمان فينصرف متلصكاً وبعد
أن يراوغ ، ثم يقول ابن عوف لعثمان مثل الذي قال له على من
الانحراف إلى بني أمية ، ويشهد الصاحبان ، ثم ينصرف
ابن عوف غضبان آسفاً ... ويتألم عثمان بل يحزن لانصراف
صاحبه على هذا الوجه

وفي الفصل الرابع يكون عثمان ومروان في مسجد النبي
بالمدينة ، ويشير عليه مروان باتخاذ الخيطة واستدعاء بعض
الأجناد - أجناد بني أمية - من الشام ليتكفوا له عدة ضد
التالبيين - فيرفض عثمان - ثم يصل وفد كبير من مصر
يشكوه فيصرفه عثمان بعد أن يعده خيراً ، فإذا خرج عثمان
لحاجة له عند سمد قال مروان :

رب هل هذا أمير الأم ؟

لا ! فـ لا للأمر إلا رجل

شائك الحد شديد الساعد

إن عثمان ملاك زاهد

يصلح الأمر له لو أنه

حاكم في أمة من زاهدين

ثم يهوى بسيفه فيقتله فبها يده فيقطعها ، ثم يهوى عليه فيقتله غير حافل بدفاع نائلة . . . ثم يحاول قطع رأسه فتدفعه نائلة ، فيمضى لشأنه ، وتقف نائلة تبكي زوجها وترى أمير المؤمنين

هذه هي مأساة عثمان صفي رسول الله الذي جاهد في الله بحاله وجاهه وروحه ويده . . . اختارها أبو حديد الشاب سنة ١٩١٨ ليفتح بها ثورته على تقاليد ألفين من السنين . . . أو عشرين قرناً من الشئان المتينة التي فرضتها علينا القوافي العربية الصارمة . فهل وفق أبو حديد في هذه المحاولة ؟

لقد اختار أن ينظم من (الرَّمَل) : فاعلان فاعلان فاعلن - وهي التفعيلات السائدة في الشطر الأول لهذا البحر ، ثم هو لم يستغن عن تفعيلات الشطر الثاني (العَجْز) ، فكان يأتي في مكان فاعلن الأخيرة بكل التفعيلات التي يبيحها عروض هذا البحر ، فهو يستعمل فاعلان وفاعلان وغيرها مما لا يتنافر وموسيقاً الرمل السهلة اللينة التي تيسر للنظام عمله في غير القواء ولا تعقيد . وسرى عند عرض درامتيه الآخرين ، ميسون - وخمرو وشيرين - أنه ترك هذا البحر ونظم من (الخفيف) = فاعلان مستغفلن فاعلان : وسرى كذلك إلى أي حد وفق في استبدال هذا البحر بذاك . على أننا نتساءل ما الذي منع أبا حديد من أن يُلَوِّنَ في استعمال البحور العربية الأخرى . لماذا لم يستعمل التقارب الموسيقي الجميل ، ولماذا لم يجرب الطويل السهل الذي هو أقرب البحور إلى النثر مع امتياز بطول النفس ؟ ولماذا غض من قيمة الوافر والكامل والبسيط والسريع وغيرها من بحور عروضنا الفنية الموسيقية ذات الطنين وذات الرنين . إن الشعر المرسل في حاجة ماسة إلى ما يعوضه عن القافية موسيقاً بموسيقا ، وأنشاماً بأنشام

للأستاذ زايه على كل حال ، وإن كنت أؤثر ألا يقطع عمر في بحر برأى حتى يجرب النظم منه ، لا مرة واحدة ، سكت مرات متعددة ، أما أن تقطع بأن هذا البحر خير من ذلك لأغراض الشعر المرسل دون أن تجري من التجارب ما يؤيد ما ذهبنا إليه فتصرف قد يضيع على الأدب المصري كثيراً من جهود المجاهدين . ولقد ذكرنا في الفصل الأول من فصول الشعر المرسل أن الشعراء الإيطاليين والشعراء الإنجليز قد انتهوا من تجاربهم على أن البحر الأيامي Iambic Metre

ذو المقاطع العشرة هو أسلس البحور للنظم المرسل ، فهلا أجرينا نحن أيضاً تجاربنا على بحورنا كلها لنكتشف أفضلها لهذا الغرض ؟ وبعد ، فهل تصلح مأساة سيدنا عثمان مسرحنا المصري ؟ وهل لا تزال نشقق من إظهار شخصياتنا الدينية ، شبه المقدسة على خشبة المسرح ؟ وهل عندنا المثلون الصادقون الذين يصح أن نكل إليهم تمثيل هذه الشخصيات ؟ وإن صح أن لدينا الممثلين ، فن منهم يؤدي دور سيدنا عثمان أحد العشرة الأول من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ عثمان . . . هذا الرجل (الطيب !) الذي أجاد أبو حديد تصويره ، كما أجاد تصوير علي . هذا الناصح الحازم الأمين ؟ ثم عبد الرحمن بن عوف ! هذا الصحابي العظيم الصريح . . .

أما صلاحية المأساة لمسرحنا فأمر لا مراء فيه ، فهي حافلة بالمشاهد الجليلة التي تزلزل القلب ، والتي صورها أبو حديد ، فأحسن تصويرها ، وإن يكن قد مجل في بعض المواقف التي كانت تقتضى الإطالة ، وأوجز حيث كان ينبغي الإطناب

أما مظنة الإشفاق من إظهار شخصياتنا الدينية على المسرح فلم يعد هناك ما يبررها ، وما دمنا نأخذ بأن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى ؟ وما دمنا ، كما ذكرت في مناسبة سابقة ، نستثنى شخصيات الأنبياء استثناء مؤقتاً . . . ولعل الجامعة الأزهرية التي أخذت تهتم روح العصر وتستجيب للنداء الجديد الذي هو في الأصل نداء الإسلام الحق ، أن يكون لها مسرحها الديني في المستقبل القريب ، فتكفيها شر الخلاف في هذا الموضوع

أما ممثلونا ، فأنا شديد الإيمان بمقدرتهم خصوصاً إذا مثل معظمهم دور مروان بن الحكم والأدوار الأموية . . . على أن لدينا من المخرجين المثقفين الذين أشربوا الروح الإسلامي ما يضمن لنا خلق الملائكة من أولئك الشياطين !

بقيت كلمات عن لغة المأساة ، وعن مطابقة وقائمه لما انتهى إليه المحققون من مؤرخي التاريخ الإسلامي ، وعن الروح التي أملت على المؤلف اختيار هذا الموضوع بالذات

فأما لغة المأساة فتوسطة ؛ ولن يضير أبا حديد الشاب الذي نظمها سنة ١٩١٨ أن يقال هذا في لغة مأساته . وسنقول إنه كتب خمرو وشيرين بأسلوب أحسن سنة ١٩٣٣